رمسيس يونان

«إن ظلا ثقيلاً يضغط على رقاب المستقبل حتى لا يبقى لنا إلا اليأس. لكن يظل لنا أن نغذى ميزان تحررنا من هذا اليأس فنحن لسنا إلا مجانين لم تعلمنا التجارب أننا لا نتغذى إلا من هذياننا، وهذا اليأس لا يحرمنا من الوضوح».
رمسيس يونان

نحن الآن إزاء فنان لم يتكرر ولا يتكرر. فنان يرسم بفرشاته السيريالية ألوانا حالمة وأطيافاً غاية فى الرقة والشفافية، وإذ يدع الفرشاة ويمسك بالقلم فإن الكلمات تتبدى حادة كسكين، صادمة كرصاصات تخرج من مدفع رشاش.

تعالوا نقرأ بعضا مما كتب: «إننا ننعت بالمتواطئين وبالتالى بالمجرمين كل أولئك الذين لا يدفعهم الوجه الحالى للعالم إلى أشرس التمردات ونضع على رأس هؤلاء المجرمين جميع الآباء البلهاء روحيين كانوا أم لا، وجميع القادة سياسين كانوا أم لا، الذين لا يعملون بطاقاتهم وبثقلهم إلا على تدعيم وتقوية المواقع الرئيسية للنظام الأبوى القائم، حتى وهم يتشيعون لمواقف توصف بالثورية». ونمضى مع الكلمات إذ تزداد التهاباً: «فالآباء القادة هم عموماً مشبوهون فى حد ذاتهم، وذلك لطبيعة وظائفهم ذاتها، والخطوة الأولى التى يجدر القيام بها لمواجهة السلطات وريثة الحالة المشئومة للعالم الراهن إنما تتمثل فى العصيان المدنى على كل الجبهات. يا شباب جميع العالم افضحوا آبائكم وابصقوا على وجه الطغاة».

ويردد رمسيس يونان أفكاراً غريبة بحيث تبدو انعكاساً لسيرياليته فى الفن فيكتب فى المجلة الجديدة: «إن الذين خارج الطبقات هم وحدهم الحائزون لحق النطق باسم المستقبل. وهم وحدهم القادرون على أن يصبحوا ثوريين. وإن حالات ماركس وإنجلز ورامبو وساد ولينين وتروتسكى جديرة بالبرهنة على هذا الشىء. وهكذا فإننا نستبدل الفكرة الاقتصادية

القائلة بصراع الطبقات بالتصور الهذيانى لصراع محموم بين الذين خارج الطبقات. وعلى هذا فإن على أبناء العامل، مثلما على أبناء البرجوازى، أن يتعلموا وأن يمقتوا بعمق جميع الممارسات التى يمكن أن تقربهم من ممارسات آبائهم. هذه خطوة جنونية بالطبع، غير أن الحرية لا يمكن امتلاكها إلا بهذا الثمن. إذ ليس من الممكن خدمة المجتمع والعمل على قلبه فى ذات الوقت». ويمضى قائلاً فى جنون: «لنكن غير نافعين بشكل كلى، لننبذ القادة والآباء والمهن. لندعم صفوف الذين خارج الطبقات ولنعلن جنوننا حتى يشمل جميع نوابض هذا المجتمع الإجرامى». وكان رمسيس يونان هو أول من وشم شعار «الفن للحياة» فى الحياة الفنية المصرية. ونقرأ: «منذ نصف قرن والآداب العالمية جميعاً تتجه نحو الأدب فى سبيل الحياة والأدب المغذى للعواطف المتمردة على الأطواق والقيود، الشعر المولد للدماء الحمراء فى السواعد الفتية التى يجب أن تتعاون على بناء عالم أسعد وأفسح آفاقاً».

لكننا يجب أن نلاحظ فى جميع الأحوال أن رمسيس يونان كان بالأساس رساماً وليس كاتباً، فماذا عن الرسام السيريالى الذى تمرد على السيريالية وأصبح تجريدياً؟. يقول صبحى الشارونى عن المرحلة الأولى فى فن رمسيس: «كانت لوحات رمسيس يونان مرسومة من خلال ألوان بنية داكنة تمثل أشكالا غريبة تصدم المتفرج، وتدور حول الجوع والجنس، فمثلاً تجده فى إحدى لوحاته يرسم طبقاً عليه ثدى امرأة، وفى لوحة أخرى نرى شجرة تثمر عيوناً ونهوداً وأفخاذاً». (المجلة الجديدة - فبراير ١٩٦٧- مقال الثقافة والتمرد ورمسيس يونان).

أما محمد شفيق فيقول: «نشاهد مظاهر فن تصويرى مشحون بدراما فاجعة يختلط فيه الحلم بالواقع. وجوه عرقى تندلع فيه إنسانية مرعبة تنادى فى يأس بحثاً عن من ينقذها، وأيد تلتف حول الأجساد تعتصر رحيقها كالأفاعى المفترسة، ونساء عاريات فى أجسادهن قسوة، ونحيب حيوانى، وأشجار تنبت فى صحراء قاحلة ذات نهود وقبضات معروقة تمتصها الرمال». (مجلة الفنون - عدد ٢٢ - ربيع ١٩٧١ - مقال بعنوان: رمسيس يونان وجيل التمرد). أما صديقه الحميم والدائم جورج حنين فيعلق على أحد معارضه قائلاً: «يرسم رمسيس يونان أعصاباً لدرجة الحاجة إلى القطع بل لدرجة استدعاء القطع. رسومه لا تعرف الراحة ولا التوقف ولا التراخى، إنه سيريالى مثل تلك

البيوت التى صدعها غضب داخلى أو خربها تمرد الأرض. وعندما تصل شخصياته إلى درجة التقلص الذى لا يمكن أن يستمر وقتا أطول فإنه لا يتردد عن بترها».

والحقيقة أن السيريالية قد بدأت تهيمن على رمسيس يونان منذ كان طالباً فى الفنون الجميلة تم اكتسبت عمقها الفلسفى مع توطد علاقته بجورج حنين وفنانى بيت الفن وجماعة «الفن والحرية».

* * *

«كانت مأساة رمسيس يونان أنه أحس بأنه ليس مفهوماً من اليمين ولا من اليسار»
لويس عوض

لكن من هو؟

الأسرة بروتستانتية من مدينة المنيا، شديدة الفقر، شديدة التدين، ولعل هذا هو سر تمرده على الأسرة وعلى الدين معاً. مات والده وهو فى الخامسة عشرة وتحمل هو عبء إعاشة الأسرة «الأم وثلاثة إخوة» فقد كان الأكبر بينهم، كان يعمل ويدرس، ومضت به رحلته الدراسية إلى مدرسة السعيدية حيث التقى بمدرس رسم فنان حقيقى وأستاذ لجيل كامل من الفنانين هو الأستاذ يوسف العفيفى، وفى عام ١٩٢٩ التحق بمدرسة الفنون الجميلة. لكن الفقر يرغمه على ترك الدراسة ليعمل مدرساً للرسم فى مدارس بطنطا والزقازيق وبورسعيد، وفى عام ١٩٣٥ انضم إلى جماعة «الرعاية الفنية» ليبرز فى صفوفها كواحد من أعمق النقاد التشكيليين. وفى عام ١٩٣٩ شارك برسومه السيريالية المذهلة فى معرض جماعى. وقبلها بعام فجر رمسيس يونان قنبلة فنية مدوية بإصداره كتاب «غاية الرسام العصرى»، ويقول رمسيس فى هذا الكتاب: «إن الفن الذى نحيطه بهالة مقدسة لا بد وأن يكون قادراً على القيام بدور هام فى هذه الدراما الباطنة. أعنى أن يكون قادراً كالأديان على إيجاد الحلول لبعض منازعاتنا النفسية وبذلك يساعدنا على الوصول إلى حالة من السلم والهدوء النفسى». وينخرط رمسيس بحماس فى جماعة «الفن والحرية» ويسهم بحماس أيضاً فى مجلة «التطور» مع أصدقائه الدائمين: جورج حنين – أنور كامل – عبدالحميد الحديدى. ليفجر على صفحاتها شعاراً مدوياً «الفن معمل بارود».

وفى عام ١٩٤٢ أصدر «المجلة الجديدة» بتمويل من جورج حنين بعد أن تنازل صاحبها سلامة موسى عن امتيازها لهذا الشاب المتفجر حماسا، وأعلنت المجلة أن شعارها

«الكفاح والتجديد الاجتماعى» وقد وزعت المجلة على مشتركيها هدايا من كتب رائعة منها: «فونتامارا» لايجنازيو سولونى (وهى رواية رائعة ضد الفاشية)، و«انهيار فرنسا» لإيليا اهرنبورج، و«برابرة سائبون» لمولوتوف، تحدث فيه عن جرائم النازية فى الأراضى السوفيتية المحتلة.

وكالعادة توقفت «المجلة الجديدة» لأسباب مالية وفى عام ١٩٤٦ ترجم رمسيس مسرحية ألبير كامى «كاليجولا» وكتب لها مقدمة ناقش فيها فكرة الانتحار من منظوره المتمرد شبه الفوضوى متسائلاً فيها: «إذا لم يجد الإنسان مغزى للحياة فهل ينبغى أن يحمله ذلك على الانتحار؟».

وفى يوليو ١٩٤٦ يقبض عليه فى الحملة الشاملة على كل رموز اليسار التى شنها إسماعيل صدقى. وفى سبتمبر من ذات العام، أى بعد أقل من شهرين، يفرج عنه بكفالة كبيرة يسددها صديقه جورج حنين.

وفى ١٥ فبراير ١٩٤٧ صدر فى القاهرة كراس بالفرنسية عنوانه «حصة الرمل» قدمه الناشر قائلاً: «الكراس الحالى المتضمن نصوصاً شعرية ونقدية طبعته فى القاهرة حركة الفن والحرية تحت الإشراف الشخصى لجورج حنين ورمسيس يونان. وتقدم الكراسة نفسها للقارئ قائلة: لن تجد فى الصفحات التالية إشارات تبعية ولا تأكيدات جامدة وهو لا يجيب على أى هدف معين إلا الاشتراك فى تبادل الآراء فى وقت يبدو فيه الإنسان نفسه وكأنه ليس أكثر من شكل من أشكال القرف، إن لدينا اعتقاداً ضعيفا فى إمكان حل المشاكل التى تؤرقنا لكن ذلك يجب أن يحدث فى مناخ حر يجب امتلاك الحرية وجعلها تستعيد ما سرق منا».

وكانت هذه آخر نفحات الثورى المتشدد فبعد سجن دام أقل من شهرين قرر الرحيل من مصر ونتوقف لنتأمل الثلاثة الذين تفجروا بكلمات نارية كطلقات رصاص، وما إن تلامسوا مع السجن بقدر قليل حتى هاجروا من مصر: أنور كامل ورمسيس يونان وسبقهما جورج حنين الذى لم يسجن لأنه أرستقراطى وابن للطبقة الحاكمة. إنها عقلية ونفسية البرجوازى الصغير يتشدد ويبالغ فى تشدده لكنه لا يحتمل ثمار تشدده فيهرب. وفى فرنسا عمل رمسيس رئيساً للقسم العربى فى إذاعة باريس وتزوج بولندية وأنجب ابنتين والتحق هناك بالسوربون، حيث درس الاجتماع والفلسفة (الأهرام –

١٩٦٦/١٢/٣٠ – مقال بعنوان كان رائداً شجاعاً) وينغمس هناك فى نشاطات الأممية السيريالية ثم يخوض ضدها صراعاً حاداً، وفى ١٩٥٦، وفى أعقاب العدوان الثلاثى يرفض أن يكون بوقا لإذاعة المعتدين فيعود إلى مصر بعد أن فصلوه. لكنه يعود بلا عمل ويتوسط له أصدقاء قدامى فيحصل على منحة تفرغ من وزارة الثقافة. لكن خصوم اليسار ظلوا يطاردونه. وفى ١٩٦١ قرر عباس العقاد، وكان مسئولاً عن التفرغ، إلغاء تفرغه هو وتحية حليم وآدم حنين وراتب صديق واضعاً استقالته فى كفة وعودتهم للتفرغ فى كفة، لكن وزير الثقافة يصمم على تفرغهم فيتراجع العقاد. لكن المؤامرات تستمر ويلغى تفرغه كفنان فيدبر له تفرغ كمترجم، لكن هذا الأمر أحزنه حزنا عميقاً، ومع ذلك بدأ فى ترجمة كتاب «تناسخ صور الآلهة» لأندريه مارلو، وترجم منه ٦٨ صفحة ثم رحل. ويكتب توفيق حنا غاضباً مؤكداً أن: «تحويل تفرغه من الفن إلى الترجمة جعله يعيش إرادة الموت». (الكواكب – ١٠/ ١٩٦٧/١– مقال: نعم هذا الفنان قتلناه)، أما لويس عوض فيهاجم لجنة التفرغ قائلاً: «هنيئاً للجنة التفرغ بتيجان العار لا تيجان الغار».